﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣﴾ [التَّوبة: 123]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبةُ بين نُهوضِ ثُلّةٍ للفقهِ والبلاغِ، وبين مواجهةِ المُعتدِين بكلِّ حزمٍ وعزمٍ وقوّةٍ

لَمّا حضَّ تعالى على التَّفقُّهِ في الدِّين، وحرَّضَ على رِحلةِ طائفةٍ منَ المؤمنينَ فيه، أمرَ تعالى المؤمنين كافَّةً بالتَّصدّي لمن يَليهم منَ الكفّارِ، فجمعَ منَ الجهادِ جهادَ الحُجَّةِ للإقناع، وجهادَ المعركةِ للدّفاعِ[1]، وهذه المناسبةُ ظاهرةٌ على قولِ مَن يَقولُ في الآيةِ السّابقةِ، بأنَّها الفقهُ في الدِّين، وعلى القَوْلِ بأنَّ معنَى ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ أي: طلبُ الفقْهِ في مواضعِ المُجاهدةِ، باكتسابِ الإيمانِ وعملِ الصّالحاتِ ورُؤيةِ نصْرِ اللّه تعالى، وتأْييدِه للمؤمنين في ساحاتِ الوغَى؛ فإنَّ المناسبةَ بين الآيتَين، هي بيانُ أنَّه ليس على المُؤمنين أن ينفِروا كافَّةً في سبيل اللّه تعالى، بل عليهم أن ينفِروا طوائفَ مُتناوبةً، فإذا نفروا كان عليهم قتالُ الكافرين الأقربَ فالأقربَ، وفي هذا بيانٌ لأهميّة التّصَدّي للخطرِ المُحدقِ، والانتباهِ إلى التّهديد القريبِ، من باب مُراعاة الأَوْلويّةِ، وتحصينِ الثّغورِ والأطرافِ، والامتناعِ عنِ الهجوم المُباغِتِ الّذي يَستأصلُ الشّأفةَ، ويجعلُ الدّيارَ بلاقعَ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَلُونَكُم﴾: ولي: الواوُ واللّامُ والياء: أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على قُرْب، من ذلك الوَلْيُ: القربُ، يُقال: تباعدَ بعد وَلْيٍ، أي: قُرْب، وجلسَ ممّا يَليني، أي: يُقاربُني[2]، والوَلاءُ والتَّوالي: أنْ يحصُلَ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/527، والبقاعي، نظم الدُّرر: 9/49.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).

شيئانِ فصاعدًا حصولًا ليس بينَهما ما ليس منهما، ويُستعارُ ذلكَ للقُربِ من حيث المكانُ، ومن حيث النِّسبةُ، ومن حيث الدِّينُ، ومن حيثُ الصَّداقةُ والنُّصرةُ والاعْتقادُ، ويُقال: وَلِيَ الشَّيءُ الشَّيءَ، وأَوْلَيْتُ الشَّيءَ شيئًا آخَر، أي: جعلتُه يَليه[1]، ومعنى قوله تعالى: ﴿يَلُونَكُم﴾ أي: منكم[2].

2) ﴿وَلْيَجِدُواْ﴾: الواوُ والجيمُ والدّال، يدلُّ على أصلٍ واحدٍ، وهو الشَّيءُ يلْفيه[3]، ويأتي هذا الأصلُ على معانٍ، وقد فرَّقوا بينها بمصادرها، فقالوا: وَجَدَ زيدٌ، أي: صار غنيًّا، وُجدانًا وجِدَةً، وقد حُكِيَ فيه الوَجْدُ والوِجدُ والوُجدُ، ووَجَدَ الضالةَ وُجدانًا ووُجودًا، ووَجَد عليه السلطانُ، أي: غَضِب، وَجْدًا ومَوْجدةً. ووَجَدتُ زيدًا عالمًا، أي: ظننتُه، أي: علمتُه وَجْدًا، ووَجَدَ فلانٌ بفلانةٍ وَجْدًا، أي: أحبَّها[4]، والمعنى المقصودُ في قوله تعالى: ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾: ولْيروْا منكم مكابدةً[5]. وشِدَّةً.

3) ﴿غِلْظَةً﴾: غَلُظَ: يَغْلُظُ، وغَلَظَ: يَغلِظُ، كَكرُمَ وضَرَبَ، فهو غَليظٌ وغُلاظٌ، والغَلْظُ: الأرضُ الخَشِنَةُ[6]، والغِلْظَةُ: ضدُّ الرِّقَّة، ويُقالُ: غِلْظَةٌ وغُلْظَةٌ، وأصلُه أنْ يُستعملَ في الأجسام، كما في عِظَمِ الجِرْم وتجسُّمه مع صَلابة، ويلزمُه الشِّدَّةُ والقوَّةُ والحِدَّة، كغَلْظِ الأرض، والثَّوبِ الغليظ، لكن قد يُستعارُ للمعاني كالكبيرِ والكثير، كما في قولِه تعالى: ﴿عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [القمان: 24][7]، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾، أي: خُشونةً وشِدَّةً وصبرًا[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أمرَ اللّه تعالى المؤمنينَ في هذه الآية أن يُقاتِلوا مَن قاتلَهم منَ الكُفّار، مَن قرُبَ دارًا، قبل مَن بعُدتْ ديارُه، وذلك لتنزيل فقْهِ الأَولويّات في فقْهِ الحربْ، وأن يكونَ القتالُ قائمًا

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ولي).
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/222.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وجد).
(4) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ: (وجد).
(5) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/222، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/588.
(6) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (غلظ).
(7) الرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (غلظ).
(8) الواحديّ، الوسيط: 2/535، والبغويّ، معالم التَّنزيل: 4/114.

على فقهٍ ضامنٍ لمسيرِ العملِ، ضِمن فقهِ السُّننِ، والعملِ بتوجيهات الشَّرعِ وإرشاداتِه، وقد أرشدتِ الآيةُ أن يجدَ الكفّارُ منَ المؤمنين مُقابلَ العُدوان والغِلظة، غِلظَةً مُماثلةً في قتالِهم لهم وكما يَدين الفتَى يُدانُ وحزمًا مع من يتجاوزُ حدودَه، ويَعتَدي على الحُرمات، ويُريدُ أن يَدوسَ الكرامةَ، ويأخذَ مُقدّرات الأمّةِ بالمغالبةِ، لا بدّ من صَدِّه وردِّه مذمومًا مدحورًا، وعليه فإنَّ المؤمنَ الكاملَ هو الَّذي يكونُ رفيقًا بأخيهِ المؤمن، حازمًا مع عَدوِّه المُعتَدي، ممّا يدلّ عليه قولُه تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ﴾ [الفتح: 29]، وذلك لما تَجلبُه الرَّحمةُ مع الكافرِ المُعانِد، من مفاسدَ على الأمّة المُسلمةِ، واعْلموا أيُّها المؤمنون أنَّ اللّه معكم إذا اتَّقيتُموهُ وأَطَعتُموه[1]، فإنَّ التَّقوى هي ركنُ النَّصر وأصلُه الأصيلُ، وهي غاية العملِ وركنُه القويمُ.

الدّعوةُ إلى مُجابهةِ حروبِ السّطوِ والاحتلالِ، بقوّة في النّزال، وتَقْوَى لذي الجلال

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكتةُ النِّداءِ بأداةِ البعيد ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾:

جاءَ النِّداءُ للبعيدِ في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لِما للمؤمنينَ من مكانةٍ عاليةٍ عند اللّه، ولِما للنّهوضِ الواعي في سبيل اللّه من مكانةٍ مَرْموقةٍ عند اللّه ﷻ، وباعتبارِ هذين الأمرَيْنِ كانت هذه الآيةُ المُصدَّرةُ بالنِّداءِ، كالوصيَّةِ للمؤمنينَ بالاستمرارِ على غَزْوِ بلادِ الكفرِ، المجاورةِ لبلادِ الإسلام، لمواجهةِ هَجَماتِهم المُتكرّرة، وتحفُّزِهمُ الدّائم لكسر شَوكةِ الإسلام، والقضاءِ المُبرم على الدّعوة إلى اللّه، الّتي كان الرّسولُ ﷺ يقودُها، بكلّ حِكمةٍ وعدلٍ وإنصافٍ، والنّداء في هذا المجال، أكثرُ الأساليب مُلاءَمةً للفْتِ الانتباه، ودفْعِ الهِمم لإدراكِ مدى أهميّةِ الاضطلاعِ بهذه المَهمّةِ الجليلة الّتي تُحقّقُ

تكريسُ السّياقِ لتحفيزِ أهلِ الإيمان، للذّبّ عنِ الدّينِ والعِرْضِ والكيانِ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/365.

مرادَ اللّه، وتَضمنُ تطبيقَ الأحكام المُنزّلةِ في القرآن، حمايةً لحمى البشرية والإنسانية والدّين.

بَلاغةُ الإبْهامِ والتَّنبيهِ: (أيُّها):

التّوطئةُ اللّفظيّةُ لمضمون النِّداءِ بعْدَ الأداة، تنبيهٌ على أهميّةِ الخطابِ بعْدَها

استعملَ (أيّ) في قولِه تعالى: (أيُّها) وهي مبهمةٌ يُتوصَّلُ بها إلى نداء المعرفةِ، كما استُعملتِ الهاءُ فيها لتنبيهِ المنادَى، وهم الّذين آمنوا لِما سيُلْقَى إليهم من أمرٍ بالقتال؛ ليكونوا على كاملِ الاسْتعدادِ للالْتزامِ به وتنفيذِه، فهمُ المقصودون بالنِّداءِ، فمجيءُ (أيُّها) توطئةٌ لفظيَّةٌ لما بعدَها منَ النِّداءِ، قُصِد بها التَّنبيهُ على مضمونِ الخطابِ، وهو الأمرُ بالقتالِ المفروضِ على الأمّة، وهو في هذه الآية يُحدّدُ من يُناديهم ويُنبّههم إلى ضرورة اليَقظة، لكلّ مُريدِ حرْبٍ، أو موقدِ فتنةٍ، أو منذرٍ بخرابٍ، للتَّهيئةِ المُسبَقةِ، والمُبادرةِ العاجلةِ، والتّدخّلِ السّريعِ، لحماية الدّار منَ النّار والدّمارِ، وذلك ما يتطلّبُه واقعُ المدافعة، بين الحقِّ والباطلِ، وبين الكفر والإيمانِ، على مدار الزّمانِ.

سِرُّ اسْتعمالِ الاسْمِ الموصولِ الجمعيِّ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

تعظيمُ شأنِ المُستحِقّين وصْفَ الإيمان، وإعلاءُ شأنِهم عند الله تعالى

قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ﴾: جاءَ اسْتعمالُ الاسْم الموصول الجمعيِّ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، في الآية الكريمة؛ للدّلالةِ على أنَّ المعنيَّ بالنِّداءِ الّذين استقرَّ الإيمانُ في قلوبِهم، وهم على استعدادٍ للتّضحيّةِ بأموالِهم وأنفسِهم في سبيل اللّه تعالى، وهذا السِّرُّ الّذي لأجْله لم يقلْ: (يا أيّها المؤمنون قاتلوا)، فإنَّ الإيمانَ هو ركنُ القتالِ، ويجبُ أن يكون إيمانُ صاحبِه راسخًا، ومعلومٌ أنّ المشاعرَ الإيمانيّةَ، تلعبُ دورًا كبيرًا في تحريك الهِمم، وشحْذِ العزائم، وتحريكِ الكوامن، وإلهابِ المَشاعر، باعتبار النّهوضِ للدّفاع عنِ القِيم العُليا، والمُنافحةِ عن كيان الأمّةِ، وحمايةِ وجودِها الحضاريِّ، من أيّ اكتساحٍ غاشمٍ، أوِ اسْتئصالٍ ظالمٍ، فتنهضُ جموعُ المؤمنين، عند المُلمّة، وتجتمعُ

الجهودُ، لحماية الحمَى، ممّن رمى إذْ رمى، وبذلك يتحقّق النّصرُ، وتضمنُ الأمّةُ وقايتَها منَ العدوان، في كلّ عصرٍ وأوان.

وفيه التّنبيهُ إلى ضرورةِ إجابةِ الدّاعي، نظرًا لدخولِهم في عَقدِ الإيمانِ الَّذي يدعوهم، ويوجِبُ عليهمُ الاسْتجابةَ، وجيء به جمعًا لبيانِ أنَّ التَّعاونَ بين المؤمنين في شأنِ القتالِ واجبٌ، وأنَّه لا يجوزُ لمؤمنٍ أن يتركَ أخاه المؤمنَ في قتالِ الأعداءِ، وهو ناظرٌ إليه، والآخرُ مُنتظرٌ منه النُّصرةَ، وتظهرُ فائدةُ استعمال الاسْمِ الموصول في أمرين: الأوّل: أنَّ الخطابَ موَجَّهٌ إلى كُلِّ مَنْ تحقّق فيه وصْفُ الإيمان، فأصبح هذا الوصْفُ ملازمًا له. والثّاني: تفخيمُ شأن هؤلاء الّذين استحقّوا وصْفَ الإيمان، وإعلاءُ شأنِهم.

دَلالةُ الإتيانِ بوصْفِ (الإيمان):

آثر النَّظْمُ وصْفَ الإيمانِ دونَ الإسلامِ في صدرِ هذه الآية؛ للدّلالةِ على أنَّ هذا النِّداءَ وما تضمَّنَه منَ الجهادِ في سبيلِ اللّه لا يَصلُحُ له إلّا مَنِ اتَّصفَ بهذه الصِّفةِ العظيمةِ، ولاسْتنهاضِ هِمَمِ هؤلاءِ المؤمنينَ للقيامِ بهذه الفريضةِ الرَّبّانيَّةِ، ولبيانِ أنَّ الإيمانَ هو المطلوبُ في قتالِ الكافرين، وما سوى ذلك من صفاتٍ يَستولي عليها القلبُ تجاهَ الأعداء، فإنَّ اللّه تعالى يريدُ من أوليائِه القتالَ نصرةً للدِّين، لا للنَّفسِ، أوِ المال، أوِ الانتقامِ، بل لتكونَ كلمةُ اللّه تعالى هي العُليا، وقدِ استأصلَ الإسلامُ معانيَ الجاهليّةِ، وقضى على دعاوَى العَنجهيّةِ، وأذابَ العصبيّاتِ المقيتةَ، والثّاراتِ المُميتةَ، وجمعَ النّاسَ على كلمةٍ سواءَ، في بَوتقةٍ واحدةٍ، شعارُها كلمةُ التّوحيد، ودِثارُها توحيدُ الكلمة، فإذا كان الإيمانُ هو الدّافعُ للهبِّ إلى الدّفاع عنِ الدّين والوجودِ، وكان الإسلامُ هو الضّابطُ للمواجهاتِ الحربيّةِ مع المعتدين، كان المُنطلَقُ عقائديًّا، مسلكُه الشّهادةُ، ووسيلتُه التّضحيّةُ في سبيل اللّه، دونَ ظُلمٍ مُفسدٍ، ولا جورٍ مُفنّدٍ، وفي هذا المضمار

إذا ضـــاعَ الإيـمـانُ، فلا تمكينَ ولا أمانَ

ذكرَ الإيمانَ؛ لاستيعابِه معانيَ المواجهةِ والتّضحيّةِ والعقيدةِ، ولم يذكُرِ الإسلامَ؛ لأنّه انعكاسٌ له، وتجسيدٌ عمليٌّ لفحواهُ.

نُكتةُ التّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾:

تحقُّقُ الإيمانِ في قلوبِ المخاطَبين، مسلكٌ للقوّةِ والحصانةِ

وردَ التّعبيرُ بالفعلِ الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾ للدّلالةِ على تحقُّقِ الإيمانِ في قلوبِهم، وتمكُّنِه من نفوسِهم وحياتِهم فأصبحوا أهلًا لمخاطبتِهم بالإيمانِ، وأمرِهم بالجهادِ في سبيلِ اللّه، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ الإيمانَ يجبُ أن يستقرَّ في نفوسِ مَن يريدُ القتالَ في سبيلِ اللّه تعالى، فهذه فريضةٌ عظيمةٌ لا يستطيعُها إلّا الثّابتون في عقيدتِهم، الأصلابُ في إرادتِهم، الطّامعون في جنّةِ النّعيمِ عن بصرٍ وبصيرةٍ، وفقهٍ في الدِّين.

دَلالةُ تَوجيهِ الخطابِ بالأمرِ للّذين آمنوا، دونَ ذكرِ الرّسولِ الأكرم:

ردُّ عُدوانِ أعداءِ اللّه، مسؤوليّةٌ قاطبةٌ

وُجِّه الخطابُ في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ للّذين آمنوا دونَ النّبيِّ ﷺ؛ ليكونَ عهدًا يَفي به كلُّ مؤمنٍ إلى يوم القيامة، وقد أُمِر ﷺ بجهادِهم، كما في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [التّوبة: 73]، وذلك أنَّ خطابَه ﷺ جاء مأمورًا بأن يُقاتلَ الكفّارَ والمنافقين، وهؤلاء هم أعداءُ الدّاخل، والأعداءُ المحيطون به ﷺ، أمّا الخطابُ في هذه الآية للمؤمنين، فهو باعتبارِ قتالِ الأعداءِ الأبعدِ، وهو وإن عبَّر عنهم بقوله: ﴿يَلُونَكُم﴾ إلّا أنَّ المرادَ أن يكونَ القتالُ مستمرًّا بحيث يصلُ الأبعدَ، لا أن يتوقّف على الّذين يَلون المؤمنين، فهذا غيرُ مراد، وفيه إشارةٌ إلى أنّ الصّراعَ القدريَّ اللّامحدودَ، بين ثُلّة الإيمانِ، وعُصبة الكفرِ، هو صراعٌ ستشهدُه فلولُ المسلمين وأجيالُهم، عبْرَ الزّمان والمكانِ، فلا يَخلو منه عصرٌ ولا مصرٌ، وقد كانتِ السّيرةُ النّبويّةُ في مرحلة التّأسيس، وتنزُّلِ الوحي، قد شهدتْ معالمَ للنّموذجِ الرّاقي للحربِ النّبيلةِ،

والمواجهة الشّريفةِ، الّتي قادها النّبيُّ المُلهمُ المعصومُ، والّتي رسمتِ الخُطوطَ الكبرى، وأرستِ القوانينَ الإنسانيّةَ السّاميةَ، لفقْهِ الحرب، وضوابطِ القتال، وأحكام الأسْرَى، وقواعدِ النّصْر، وحيثيّاتِ الهزيمة، ممّا تزخرُ به كتبُ الفقه والتّفسيرِ، ومصنّفاتُ العلماء في السّياسةِ الشّرعيّةِ والمقاصدِ والأصولِ. كما أنّ في مخاطبة المؤمنين دون الرّسول الأكرم ﷺ، تنبيهًا لجماعةِ المؤمنينَ على المسؤوليَّةِ المُلقاةِ على عاتقِهم، ابتداءً بعهدِ الإيمانِ الَّذي التزموهُ بقتالِ أعداءِ الإيمان، وفيه كذلك إيماءٌ إلى أنَّ النَّبيَّ ﷺ لا يَغزو بعدَ ذلك، وأنَّ أجلَه الشَّريفَ ﷺ قدِ اقْترب[1].

دَلالةُ مَجيء فعلِ الأمرِ ﴿قَٰتِلُواْ﴾، بعدَ النِّداءِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾:

التّهيئةُ بالنِّداءِ لفعل الأمرِ، ترسيخٌ للمطلوبِ، وتثبيتٌ للمرغوب

قولُه تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾، يغلبُ أن يأتيَ بعدَ النِّداءِ أمرٌ أو نَهي، فهو إمّا أمرٌ بخيرٍ أو نهيٌ عن شرٍّ، وهنا جاءَ الأمرُ بعدَ النِّداءِ، بقتالِ الكافرين، وهو أمرٌ جدٌّ خطير؛ لما فيه من مصلحةٍ كبيرةٍ للأمَّة، فلا بدَّ منَ التزامِ القيامِ به، وهو إنشاءٌ بعد إنشاء، فقد نادى ابتداءً فوقعَ الانتباهُ، وتهيَّأتِ النُّفوسُ لسماعِ ما سيُلقَى، ثمَّ أتى الأمرُ ليقعَ الخطابُ في القلوبِ راسخًا مقبولًا، وهذا أقوى منَ الابتداءِ بالأمرِ مباشرةً، فالقرآن يُعلِّمنا تهْيئةَ نفوس المخاطَبين، لاسيَّما في الموضوعاتِ العظيمةِ.

سِرُّ اخْتيارِ الفعل ﴿قَٰتِلُواْ﴾:

القتالُ رمزٌ لمُقارَعةِ العدوِّ الصّائلِ، ودفعٌ لشرّه المُتوقَّعِ والحاصلِ

قولُه تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾، كلمةُ الجهاد واسعةُ الدَّلالةِ، ويدخلُ فيها الجهادُ بالسَّيفِ والجهادُ بالنَّفس، واختيرَ لفظُ القتال، في قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم﴾، دون أن يقول: (جاهدوا الذين يلونكم)؛ للنَّصِّ على أنَّ المرادَ هو القتالُ بأداةِ الحرب، وأنَّ اللّه ﷻ يُريدُ من عبادِه القتالَ المُفضي إلى إعلاءِ كلمتِه،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/63.

ولذلك قال: ﴿وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ﴾؛ كي لا تقبلَ الآيةُ احتمالًا لمتأوِّلٍ، وهذا القتالُ هو نوعٌ من أنواعِ الجهادِ في سبيلِ الله، وإنْ كانَ أكثرَ ما يُطلقُ الجهادُ عليه، هو القتالُ بالسّيف في المعارك، لكنّ مفهومَ هذا المُصطلحِ السّامي، لا يَعني التّحفّزَ للعُدوان، ولا الاعتداءَ الهمجيَّ على الإنسان، ولا استعراضَ القوّة من غير داعٍ ولا ضرورةٍ، ولكنّه صدٌّ للهجَماتِ الشّرسةِ، وإحباطٌ للمؤامراتِ الدّنسةِ، وتحصينٌ للحدود، ومنعٌ للفتن، ما ظهرَ منها وما بطنَ، وإظهارٌ لقوّة الإسلام، وهيبةِ الأمّة، في الإعدادِ والإمدادِ، والنّأيُ عنِ الظّلْم والعُدوان والفسادِ، ولا شكّ أنّ الحرب إذا شمّرتْ عن ساقٍ، وحميَ الوطيسُ، كان مُقتضى الحال، بحاجة إلى القتال، من أجل الدّفاعِ عنِ النّفس، والمحافظةِ على الدّين، وحمايةِ الوطن، والمُنافحةِ عنِ الهويَّة، وصوْنِ الإنِّيَّةِ والخُصوصيّةِ، وذلك هو مُفادُ التّعبير، في ظلّ فلسفةِ المواجهةِ، ومَقصديّةِ الجهاد الشّريف، والنّزال النّظيف، المَنوطِ بالأجر والمثوبةِ، والآيلِ إلى مقامات الرّضوانِ، في مرابعِ الجنانِ. وعليه فالجهادُ في سبيلِ الله يكونُ باليدِ وباللِّسانِ وبالقلب، والجهادُ بمفهومِه الواسعِ، هو جهادُ النَّفْسِ بكَبْحِ جماحِها عنِ اتِّباعِ الشَّهواتِ والشُّبُهات، وكُلِّ ما يُقوِّضُ دعائمَ الإيمانِ في القلب، أو يُضعِفُها[1].

كـلّـمـا قــرُبَ الكافرُ المحارِبُ منَ الدّيارِ، كان صَــدُّه يَقتضي اليقظةَ والبِدارَ

فائِدةُ اسْتعمالِ الاسْمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾، وفيه جاءَ اسْتعمالُ الاسْمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في الآية الكريمة؛ لتأكيدِ هذه الصِّفة وتحقُّقِها في قتالِ الكفّار، فيجبُ أنْ تكونَ صفتُهم أنَّهم ممَّن يَلي المسلمين، الأَقْربَ فالأَقربَ لديارِ المسلمين، فكلَّما اسْتقرَّ بلدٌ للإسلام، وكان تجاورُه بلادُ كُفرٍ، كانَ حقًّا على المسلمينَ غزوُ البلادِ

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/59.

المُجاورةِ، ولذلك ابْتدأَ الخلفاءُ بفتحِ الشّام، ثمَّ العراقِ، ثمَّ فارسَ، ثمَّ انثنَوا إلى مصرَ، ثمَّ إلى إفريقيا، ثمَّ الأَنْدَلُس[1]، فنُكتةُ الاسمِ الموصولِ، تأكيدُ أنَّهم همُ الّذين يَلون المؤمنين منَ الكفّار، وأنَّهم يَقِفون في وجه دَعوةِ الحقِّ ﷺ.

دَلالةُ اسْتعمالِ ﴿يَلُونَكُم﴾ دون مُرادِفاتِها:

قُـــربُ الـكـفّـارِ المباشرُ المتّصلُ خـطـرٌ قـريـبٌ، وتهديدٌ مُريبٌ

كلمةُ ﴿يَلُونَكُم﴾ تعني الأَدْنَى فالأَدْنَى، أو الأَقربَ فالأقرب، فقد أمرَ اللّه تعالى المؤمنين أن يُقاتلَ كلُّ فريقٍ منهم الجنسَ الّذي يُصاقِبهُ منَ الكَفرَة، وأمّا إذا مالَ العدوُّ إلى صُقعٍ من أصقاعِ المسلمينَ، فوجبَ على منِ اتَّصلَ به منَ المسلمينَ، كفايةُ عدوِّ ذلك الصُّقع، وإن بعُدَتِ الدّارُ، ونَأَتِ البلادُ فـ﴿يَلُونَكُم﴾ تدلُّ على القُربِ المكانيِّ الحقيقيِّ فحَسْب، ممّا لا يُسعِفُ به الفعلُ (يقربونَكم) أو غيرُه منَ المرادفات، فقد يكونُ الشَّيءُ قريبًا ولكنَّ قُربَه غيرُ لَصيقٍ؛ وقد يكونُ قربًا معنويًّا أو مجازيًّا[2]، فاختيارُ هذا اللَّفظِ لبيانِ أنَّ القُربَ المقصودَ هو قربٌ شديدٌ متّصلٌ بما بعدَه، ولهذا أُتي بمُفردةِ الوَلْي، أي: يلونكم وَلْيًا متَّصلًا لا انقطاعَ له، ويُؤخذُ منه أنَّ قتالَ الكافرين لا يتوقّفُ عند حدٍّ، بل هو مستمرٌّ ما دام الإيمانُ والكفرُ موجودَيْن، ولا يُفهمُ منه أنَّ القتال يكونُ للكافرين القريبين فحسب؛ ذلك أنّ الاعتداءَ على ديار المسلمين والكيدَ لهم، والتّآمرَ عليهم، قد يكونُ من الموالي للدّيار، وقد يكونُ منَ النّائي البعيدِ عنها، فالغايةُ صدُّ الخطر مهما كان، ومن أيّ جهةٍ استبانَ، بغضّ النّظرِ عنِ البُعد والقُربِ، ولكنّه ذكرَ ﴿ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾، باعتبار أنّ خطرَهم أقربُ، وأنّ تآمرَهم أظهرُ، وقد يُؤتمنُ القريبُ المُحاذي، وقد قيل في الأمثال: (مِن مأمنِه يُؤتَى الحَذِرُ).

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/527، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/63.

(2) الرّاغب، المفردات: (ولي)، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/97، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/618.

نُكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ: ﴿يَلُونَكُم﴾:

بيانُ استمرارِ الصّراعِ بين الحقّ والباطلِ، وبُروزِ الخطرِ من الأَدْنَى فالأَدْنَى

الفعلُ المضارعُ يُفيدُ التَّجدُّدَ والاستمرارَ، وفي قولِه تعالى: ﴿يَلُونَكُم﴾ تعبيرٌ عن هذا الاستمرار، وهذا هو الواجبُ في قتالِ الكافرينَ: أنْ يكونَ مُستمرًّا دون توقُّفٍ مع مَنْ يَلونَ المؤمنينَ في قُربِهم فيحرِصُ المؤمنونَ على قتالِ الأَقْربِ لهم منَ الكفّارِ فالأَقْرب، فيقاتلُ المسلمونَ مَنْ يُجاورونَهم في المكانِ لضمانِ استمراريَّة نشْرِ الرِّسالةِ الإسلاميَّةِ ممَّن يَلي ديارَ الإسلام أوَّلًا بأوَّلٍ، ودَفْعِ غائلةِ اعْتداءِ الكفّارِ على تلكَ الدِّيار.

دَلالةُ الحرفِ ﴿مِّنَ﴾:

يُراعَى مع المحاربين، التزامُ أو عدمُ التزامِ الكفّارِ بحُسنِ الجوارِ

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾، وفيه أنّ معنى ﴿مِّنَ﴾، في سياق الآية الكريمة، بيانيَّةٌ حاليَّةٌ، أي: حالَ كونِ الَّذين يَلونَكم كافرين[1].

سِرُّ إيثارِ صيغةِ الجمعِ: ﴿ٱلْكُفَّارِ﴾:

يغلبُ استعمالُ (الكفّار) في سِياق القتالِ، واستعمالُ (الكافرين) فيه وفي غيرِه

آثرَتِ الآيةُ اختيارَ صيغة ﴿ٱلْكُفَّارِ﴾ بدلًا من (الكافرين)؛ لأنَّ المرادَ في السِّياق هو ذواتُ الكافرين، فالكُفّارُ جمعُ تكسير، والكافرون جمعُ مذكّرٍ سالمٌ، فالثّاني خاصٌّ بجمعِ الصِّفاتِ المتعلِّقةِ بالمذكَّرِ السّالمِ، وفي الغالبِ يُرادُ به الحَدَثُ، وجمعُ التَّكسير يُرادُ به الذَّواتُ، ولذلكَ كانَ الكُفّارُ بذواتِهم مُعجبينَ بالدُّنيا راكنين إليها، حيث ستروا حقَّ اللّه عليهم واستهانوا به، ولذلك كانت صيغةُ ﴿ٱلْكُفَّارِ﴾ صيغةَ مبالغةٍ، لأشخاصٍ اتَّصفوا بهذه الصِّفاتِ ومَرَدوا عليها، وليس الأمرُ بالقتال، تدخّلًا في خصوصيّاتِهم العقديّة، ولكنّه مراعاةٌ لواقعِ الصّراعِ السَّننيّ الكَونيِّ، مع الكفر، الّذي لا يهنأُ له بالٌ، حتّى يأتيَ على بُنيانِ الإسلام منَ القواعد، فلا غرْوَ أن

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/196.

ندافعَ عن حقّنا في الوجود والأمانِ، والتّعايُشِ مع غيرنا في احترام وسلامٍ، فإن آثروا غيرَ ذلك، دِنّاهم كما دانوا. وعليه فلفظُ الكُفّارِ يُستعمَلُ لذواتِ المقاتلينَ المُبايعينَ في الكفرِ، على صيغةِ (فُعّال)، والكافرون صفةٌ أقربُ للفعليَّة والحَدَث، والكفّارُ صيغةُ مبالغةٍ تدلُّ على كثرةِ القيامِ بالكفر، وتدلُّ على الذَّواتِ الَّذين هم يقاتلون، فهؤلاء جعلوا الكفرَ مِهنةً لمحاربةِ المسلمين[1].

دَلالةُ التَّقْييدِ في المكان، بقتالِ ذَوي الخطرِ المُحدِقِ:

البَداءةُ بقتالِ القَريبين منَ المُحاربين قبْلَ البَعيدين، مُراعاةٌ للمصلحةِ الشَّرعيَّةِ

في قولِه تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾، تَقْييدُ قتالِ الكفّارِ الَّذين يَلونَ المؤمنينَ في المكان، أي: الكفّارُ الأَقْربُ في مجاورتِهم لبلادِ الإسلام، ذلك أنّ الخطرَ بإشعال الحروب وإدارتِها، تجعلُ الدّارَ قاعًا صفْصفًا، وتَسحقُ معالمَ الحياة، فلا تُبْقي فيها ولا تَذرُ، فالبدءُ بالأقرب، وقايةٌ من هَجَماتِ الأبْعدِ وشراستِه، والمرادُ هنا أنْ لا يتجاوزَ المؤمنون في قتالِهم لبلادِ الكفرِ الأبعدَ، ويترُكوا الأَقْربَ؛ لأنَّهم عند ذلكَ لا يأمنونَ غائلةَ القريبينَ منَ الكفّارِ في تسلُّطِهم على ديارِ المؤمنين، ففي قتالِ الأَبْعدِ تعريضٌ لتدارُكِ المسلمين إلى الفتنةِ، فإنْ كانوا ضعفاءَ كانَ الاسْتيلاءُ عليهم أسهلَ، وإن كانوا أقوياءَ كانَ تعرُّضُهم لدارِ الإسلام أشدَّ، ولأنَّ المعرفةَ بمن يَلي آكدُ منها بمن بَعُدَ، للوقوفِ على كيفيَّةِ أحوالِهم وعَدَدِهم وعُدَدِهم، فترجَّحتِ البَداءةُ بقولِه تعالى: ﴿يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾، بقتالِ من يَلي على قتالِ من بَعُد[2]، ويتأكَّدُ ذلك ويَقوَى في قتال الّذين اعتدَوا على ديارِ الإسلام، واستباحوا بيْضتَهم، فقتالُهم أوجبُ، وإخراجُهم آكدُ، والتّقصيرُ في ذلك، دليلُ ضعفِ الإيمانِ، وهشاشةِ روح الجهادِ، وخَوَرِ العزيمة، وذهابِ الهِمَّةِ.

(1) الرّاغب، المفردات: (كفر).

(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/221 - 222، وأبو حيّان، البحر المحيط: 527 - 528.

دَلالةُ اسْتعمال حرفِ الواوِ العاطفةِ ﴿وَلْيَجِدُواْ﴾:

الجمعُ بين كيفيَّةِ التّصدّي للعدوّ، ووجوبِه على المؤمنين المُلْزَمين بذلك

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَلْيَجِدُواْ﴾ عاطفةٌ لجُملتِها الآمرةِ بالغِلظةِ على الكفّارِ، على الأمرِ السّابق في قولِه تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم﴾، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التّوبة: 73][1]، وهي تأكيدٌ لوجوبِ قتالِ الكُفّارِ، بالخشونةِ والبأسِ الشّديد، فهي عطفُ إنشاءٍ على إنشاءٍ، دلَّ الأوَّلُ على جوهرِ الأمرِ بقتالِ الكفّار، ودلَّ الآخرُ على كيفيَّةِ القتالِ، فهي من عطفِ الكيفيَّةِ على أصلِ العملِ، فالقتالُ بهذه الكيفيَّةِ واجبٌ، لا مناصَ منه، وأخْذُ الأمرِ بالجِديّةِ القُصوى، والقوّةِ الضّاربةِ، والبأسِ الشّديدِ، من مُتطلّباتِ الحربِ الضّروسِ، فلا يصمدُ فيها إلّا من كان ذا قوّةٍ وذا بأسٍ شديد، يُقارعُ الأقرانَ، ويغالبُ الزّمانَ، ويخوضُ غِمارَ الموتِ، ويَقحَمُ الغيبَ بلا فوتٍ، ويدفعُ كلَّ ظلّمٍ مُريع، ويَزيحُ كلَّ باطلٍ فظيع.

سِرُّ إيثارِ صيغةِ الأمرِ باللّامِ والفعلِ المضارعِ ﴿وَلْيَجِدُواْ﴾:

تقويةُ المعنَى والمُبالغةُ في تحقيقِ الغِلْظةِ على مَن يَستحقُّها

آثَرَ النَّظْمُ الكريم استعمالَ صيغةِ الأمرِ باللّام، والفعلِ المضارعِ، في قولِه تعالى: ﴿وَلْيَجِدُواْ﴾، دونَ أنْ تكونَ على شاكلةِ ما عُطفتْ عليه في قولِه تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ﴾ فلم يقل: (واغْلِظوا عليهم)، وذلك لأمرين: أحدُهما: لِما في ذلك من زيادةِ المعنى، فالقاعدةُ الأغلبيَّةُ، أنَّ زيادةَ المبنى تدُلُّ على زيادةِ المعنى، حيث قالَ تعالى: ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ ولم يختصرْ فيقول: واغلِظوا عليهم؛ ليجمعَ إلى الأمرِ بالغلظةِ، أن تكون فيهم حاضرةً، في جميع ساحاتِ القتالِ، لا مجرَّدَ فعْلٍ عابرٍ.

الآخرُ: أنَّ إيرادَ الأمرِ على هذه الصّورةِ الواردةِ في قولِه تعالى:

(1) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 3/97، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/173.

﴿وَلْيَجِدُواْ﴾ لِحَملِ المؤمنين على المبالغةِ في تحقيقِه حتَّى يذوقَ الكفّارُ تلكَ الغِلْظةَ وشدَّتَها على ذواتِهم، وتكونَ درسًا لغيرِهم ممّا يَليهم فيكفّوا عن إيذاءِ المؤمنينَ والتَّسلُّطِ على ديارِهم[1].

بَلاغةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿وَلْيَجِدُواْ﴾:

مقابَلةُ غِلْظةِ الكافرينَ بغلظةٍ أشـدَّ، إذْ لا يَفُلُّ الحديدَ إلّا الحديدُ

لَمّا كانَ الآمرُ في قولِه تعالى: ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾، هو اللهُ ﷻ دلَّ على أنَّه ﷻ هو العليمُ بما عليه حالُ الكفّارِ الَّذين يَلونَ المؤمنينَ، من قوَّةِ شَكيمتِهم وتربُّصِهم بالمؤمنين، وانتهازِ الفُرصةِ تِلْوَ الفُرصةِ، لينقضّوا عليهم و يَبيدوهم ويَستولوا على أرضِهم، فأرادَ اللهُ ﷻ أن يُنبِّهَ المؤمنينَ لضرورةِ الاستعدادِ لقتالِ أولئك الَّذين علمَ اللهُ حالَهم ذاك، فأمرَهُم بالغِلْظةِ في قتالِهم وإحكامِ قَبْضتِهم عليهم، فهو أَهْيبُ في صدورِهم، وأَكَفُّ عن فُجورِهم، وأَوْفَى في هلاكِهم، وذلك الوِجْدانُ لا يتحقَّقُ إلّا إذا كانتِ الشِّدّةُ، بحيث تظهرُ وتنالُ العدوَّ فيَحُسُّ بها[2].

سِرّ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿فِيكُمْ﴾، على قولِه: ﴿غِلْظَةً﴾:

الغِلظةُ حمايةٌ للمؤمنين منَ الاعتداءِ والتّسلُّطِ على ديارِهم

مُقتضى ظاهرِ تركيبِ الجُملةِ: (ولْيجدوا غلظةً فيكم)، لكنَّ النَّظمَ القرآنيَّ جاءَ بتقديمِ الجارِّ والمجرورِ فقالَ تعالى: ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾، حيث قدَّمَ ما حقُّه التَّأخيرُ، ونكتةُ التَّقديمِ المبالغةُ في الأمرِ بالشِّدَّة، ولتنبيهِ المؤمنينَ بضرورةِ تحقُّقِ نفوسِهم بهذه الغِلظةِ، وتَشرُّبِ قلوبِهم بها، لا تطلُّبًا للعُدوان، ولا جَوْرًا على بني الإنسان، ولكنّها دفاعٌ عنِ الكيانِ، وحمايةٌ للأوطانِ، ومقابلةٌ لِما يَبدرُ منَ الأعداء، بقوّةٍ رادعةٍ شديدةِ المِراس، تكفُّهم عنِ الجَراءةِ على الحِمى، وتمنعُ أيديَهم عنِ العبثِ والأذَى، وعليه فإنَّها الأَجْدَرُ لمقارعةِ

(1) عبد القادر شيبة الحَمَد، تفسير آيات الأحكام، ص: 142.
(2) البقاعيّ، نظمُ الدُّرر: 9/49 - 50.

غِلظتِهم بغِلظةٍ أشدَّ منها، مُهلكةٍ لها، ومُنْفِذَةٍ لأمرِ الله فيهم[1]؛ فإنَّ من لم يغلُظْ على أعداءِ الله تعالى، غَلُظوا هم عليه، وأراقوا دمَه، واستباحوا حُرمةَ أرضِه وعِرضِه، فالغِلظةُ مكانُها ساحاتُ القتال، لا الدَّعوةِ، وفي دار الحربِ، لا الأمانِ، ومع الكافرين لا المؤمنين.

بَلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ، في لفظِ ﴿غِلْظَةً﴾:

لفظُ الغِلظة مُستعارٌ للمعاملةِ الضّارَّةِ، على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّة والأصليَّةِ، ورَشَّحَ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَلْيَجِدُواْ﴾ ليَشعرَ بها الكفّارُ أَثَرًا معقولًا في نفوسِهم، ويجدوا أثرَها كذلكَ في ذواتِهم، ويتحقَّقَ المقصودُ منَ الأمرِ بها، وذلكَ يجمعُ الجُرأةَ والصَّبرَ على القتالِ والعُنفَ في القَتْلِ والأسْر، فالقتلُ إزهاقٌ للنَّفْس، والأَسْرُ إذْلالٌ لها[2]، والاستعارةُ أبلغُ منَ الحقيقةِ، إذ في هذا اللَّفظِ منَ التَّصريحِ بالمطلوبِ ما لا يُؤدِّيه لفظُ الحقيقةِ، مع مُناسبتِه لسياقِ الأمرِ بالقتالِ، وفي اختيارِ هذا اللَّفظِ ردٌّ على المُنهزمين، وتقويةٌ للضُّعفاءِ، وتشجيعٌ للجُبناءِ، فغلظةُ المؤمنين في القتالِ، هيبةٌ للأمَّة، وقوَّةٌ للمؤمنين، فهم وإن كانوا في الدَّعوةِ حكماءَ، لكنَّهم في القتالِ أشدّاءُ.

المناسبةُ بين اللَّفظِ والسِّياقِ، مَرعيَّةٌ في إبرازِ الدّلالاتِ والمعاني

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿غِلْظَةً﴾:

جاءَ التَّعبيرُ بلفظِ ﴿غِلْظَةً﴾ دونَ غيرِه منَ المتقارباتِ والمترادفات؛ لأنَّ القصدَ منه إلقاءُ الرُّعبِ في قلوبِ الأعداءِ، حتَّى يَخشَوْا عاقبةَ التَّصدّي لقتالِ المسلمين، والمسلمُ ليس من طبعِه القسوةُ، بل هو يُعايشُ النّاسَ، حتّى وإنِ اختلفوا معه، بلينِ القول، وحسنِ المعاملةِ، ما كان الاحترامُ قائمًا، والسّلمُ موفورًا، فإذا قلَبوا له ظهرَ المِجنّ، وأرادوا أن يَدوسوا كرامتَه، أو يَحطِموا منظومةَ قِيَمِه، أو يَحتلّوا

الغِلظةُ جُرأةٌ وشدَّةٌ وخُشونةٌ في البدنِ، والقسوةُ صلابةٌ وتحجُّرٌ وشدّةٌ في القلبِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/63.

(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/222، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/50، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/63.

أرضَه، أو يُلطّخوا عِرضَه، كشّرَ عن أنياب العزمِ، وأبان منَ القوّة ما يمنعُ شانِئيه، من ذلك الفعلِ السّفيهِ، ولذلك فلفظُ الغلظة هنا، يجمعُ الجراءةَ والصَّبرَ على القتالِ، وشدَّةَ البأس، ومرارةَ التّصدّي بالحزم، وإذاقةَ الغِلظة للعدوِّ حتّى يَحُسَّ بها[1]، فالغِلْظةُ بكسرِ الغَيْنِ: الشِّدَّةُ الحسِّيَّةُ والخُشونةُ، والمقصودُ بالقتالِ هو الشِّدَّةُ، كما قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ﴾ [الفتح: 29]، إذِ المطلوبُ أن يرى الكفّارُ منَ المؤمنين شدَّةً، من شأنِها الإعانةُ على الانتصار، ولا معنى للقسْوةِ هنا، إذ يغلبُ عليها أن تُستعمل في قسْوة القلبِ.

معنَى العطفِ بالواو، في جملةِ ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾:

الأمـرُ بالتَّقوى سِـياجُ القتالِ الغليظِ، وفيه ربـطٌ للفعل بمقصدِه

العطفُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، مُترتِّبٌ على ما سبقَه، أي: قتالُ الكُفّارِ والغِلظةُ عليهم كلاهما من بابِ التَّقوى والشَّهادةِ، بكوْنِهم من زُمرةِ المتَّقين[2]، فهذا هو الأمرُ الثّالثُ في الآية، فالأوَّل أمرٌ بقتالِ الكفّارِ، والثّاني أمرٌ بالإغلاظِ عليهم، والثّالث أمرٌ بعلمِ أنَّ اللّه مع المتّقين، والأمرُ بالتَّقوى هو سياجُ القتالِ بالغِلظة، فمنِ اتَّقى اللّه استجابَ له في الرَّحمةِ والشّدَّةِ، والغِلظةِ والرَّقةِ، ومن وضعَ أحدَ المعنَيَين في مكانِ الآخر، فقد ظلم وجهِلَ المطلوبَ، وخرج عن تحقيق المقصودِ، والتّقوى خَشيةُ اللّه حيثما كان المُتّقي، وهي مَلمَحٌ يُستصحبُ في السِّلم والحرب، والمَنشَطِ والمكرَه، ومع الصّديق والعدوِّ، والبعيد والقريبِ، وهي أن يلبَسَ لكلّ حالةٍ لَبوسَها، وأن يُراعيَ أحكامَ اللّه في نَعماء الحياةِ وبُؤسِها، وهي سببٌ للنّصر المبينِ، ووقايةٌ منَ المصير المهينِ، وامتثالٌ لأمر اللّه الّذي يعلمُ ما يَصلحُ للإنسان، وما يكونُ به الأمانُ والاطمئنانُ.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/50، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/63.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/618.

نُكتةُ تصديرِ الجملةِ بفعل الأمرِ ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾:

غرَضُ الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ وجوبُ معرفةِ أنَّ اللّه ناصرُ المتَّقين، فهو وعدٌ بالنَّصرِ والتَّمكينِ لجماعةِ المؤمنين، وفي ذلك تأييدٌ وتشجيعٌ ربانيٌّ للقيامِ بالأمرَيْن السّابقَيْن: قتالِ الكفّارِ والغِلْظةِ عليهم[1]، وقد صُدِّرتِ الجملةُ الكريمةُ بقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾، للاهْتمامِ بما يُرادُ العلمُ به، كما في قولِه تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ [الأنفال: 41][2].

الاهتمامُ بإيجابِ استحضارِ المؤمنين، نصرَ الله وتَمكينَه

نُكتةُ التَّوكيدِ بجُملةِ مؤكِّداتٍ، في ثنايا السّياق الحكيمِ:

صُدِّرَت الجملةُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، بالأمرِ بقولِه: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ الَّذي يُفيدُ اليقينَ مع مصاحبةِ ﴿أَنَّ﴾، الَّتي تفيدُ التَّوكيدَ، واسْمِ العلمِ لفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾، والمَعيَّةِ الرَّبّانيَّةِ للفظِ ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ المعرَّفةِ بـ (أل)، وجميعُها مؤكِّداتٌ لتحقيقِ الوعدِ بمعيَّةِ اللّه الَّتي تفيدُ التَّأييدَ؛ بلِ المُبالغةَ في التَّأييدِ والوعدِ بالنَّصرِ والتَّمكين، وفي ذلك تنبيهٌ على أن يكونَ الحاملُ على القتالِ، ووجودِ الغِلظةِ، إنَّما هو تَقْوى اللّه ﷻ، لا يَقصِدُ بقتالِه الكفّارَ والغِلظةِ عليهم، الغنيمةَ ولا الفخرَ ولا إظهارَ البَسالةِ[3].

تقْوَى الله تعالى باتّباعِ أمرِه، دافعٌ لقتالِ الكفّارِ، والغِلْظةِ عليهم

سر الختمِ بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، آثرَ النَّظمُ الكريمُ فيه، ذكْرَ لفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ لزرعِ المهابةِ والجلالةِ في نفوسِ المؤمنينَ، والمسارعةِ في تنفيذِ الأمرَيْن اللَّذين وردا في السِّياقِ خاصَّةً من قتالِ الكفّارِ والغِلظَةِ عليهم وجميعِ أوامرِ اللّه ﷻ، مع ما يُشعِرُه ذكْرُ هذا اللَّفظِ الجليلِ في هذا السِّياقِ من تطمينِ قلوبِ المؤمنين وتثبيتِها خاصَّةً في مواقفِ القتالِ في سبيلِ اللّه، وتحفيزِ أصحابِها

المُعاملةُ المُستحقّةُ، للصّديقِ الودودِ، والعدوِّ اللّدودِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/63.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/64.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/528.

لالْتزام التَّقْوى حتَّى تكلأهم مَعيَّةُ الله تعالى، وتُسبَلَ عليهم سكينتُه وحمايتُه، وفي ذلكَ كذلكَ تَنْصيصٌ على أنَّ الإيمانَ بالله تعالى والقتالَ على الوجهِ المذكورِ من بابِ تقْوى الله والشَّهادةِ بكونِهم من زُمرةِ المتَّقين[1].

بلاغةُ الكنايةِ، في ذكْرِ المعيَّةِ ﴿مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾:

مَعيَّةُ الله للمتَّقينَ، نصرٌ متينٌ، وفتحٌ مبينٌ

قولُه تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، اكْتفَتِ الجملةُ بذكرِ المعيَّة، دونَ التَّصريحِ بمُقتضياتِها، منَ النَّصرِ والتَّمكينِ في هذه الآية الكريمةِ؛ لأنَّ معيَّةَ الله لا تعني مجرَّدَ النَّصرِ في قتالِ الكفّار؛ بل تعني ولايةَ الله الدّائمةَ، والتَّأييدَ المطلَقَ للمتَّقينَ، في جميعِ شؤونِ حياتِهم، ما أقاموا شرْعَ الله في نفوسِهم ودَعَوْا به غيرَهم؛ لتتحقَّقَ خلافةُ الله في أرضِه، بقولِه تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30] وقولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذّاريات: 56]، وكأنَّ الجملةَ تَنهى المؤمنين أن يخافوا أنْ يُؤدِّيَ شيءٌ من مُصاحبةِ مَعيَّةِ الله إلى وَهْنٍ؛ بل هي قوَّةٌ تَسنُدُ المؤمنين، ورحمةٌ تُظللهم، فإنَّ العِبْرَة بمن كانَ الله معه[2]، فهي كنايةٌ عن نصرِ الله تعالى؛ لأنَّ من كان الله معه كان منصورًا، فشرطُ النَّصرِ التَّقوَى، والاستجابةُ لأمرِ الله بقتالِ الكفّار، والإغلاظِ عليهم.

بَلاغةُ الالْتفاتِ منَ الخطابِ إلى الغَيْبةِ في الآيةِ الكريمةِ:

المعيَّةُ الإلهيَّةُ تمدُّ المتَّقينَ، بالنَّصرِ والتَّمكين، في كلِّ حينٍ

قولُه تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، التفتتِ الجملةُ منَ الخطابِ ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾، إلى الغيبة، ﴿مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، فلم يقلْ: (واعْلَموا أنَّ الله معكم)؛ بل أُدخِلَ في المتَّقين المخاطَبون، ولذلك وضعَ الظّاهرَ مَوْضعَ المُضمَرِ، للتَّنصيصِ على أنَّ الإيمانَ والقتالَ على الوجهِ المأمورِ به، من بابِ التَّقوى والشَّهادةِ بكوْنِهم من زُمرةِ المتَّقين،

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/618.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/50، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/618.

وإمّا أنَّ المرادَ الجنسُ، وهم داخلونَ فيه دخولًا أوَّليًّا، وهم في كلا الحالَيْن، إنْ تحقَّقوا بالتَّقوى، تحقَّقَ نصرُ الله لهم، وصاحبَهم ولم يتخلَّفْ عنهم[1]، ونكتةُ الالتفاتِ تكمنُ في كونِ المتَّقين زمرةَ خيرٍ، فإن أراد المخاطَبون أن يدخلوها، تحقَّق لهم النَّصرُ بالمعيَّة، وإن أبَوا فشأنُ المُتأبِّين عنِ التَّقوى الظَّفرُ بالهزيمةِ، ولو قال: (واعْلَموا أنَّ الله معكم)؛ لتضمَّنَ ذلك أنَّهم متَّقون، ولَفُهِم أنَّ المعيَّةَ لهم دونَ غيرِهم، وهو خلافُ المقصودِ؛ إذِ المرادُ بيانُ أنَّ الله مع عمومِ المتَّقين، في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

سِرُّ اخْتيارِ وصْفِ التَّقوى:

قولُه تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، آثرَ فيه النَّظمُ اختيارَ وصْفِ التَّقوى دون التَّوكُّل؛ لأنَّ التَّقوى تكونُ بالتزامِ أوامرِ الله، ومنها: قتالُ الكفّارِ والغِلظةُ عليهم، ثمَّ بعدَ اسْتكمالِ هذه التَّقوى يأتي التَّوكُّلُ على الله، فلا توكُّلَ على الله حقًّا وصِدقًا، لمَنْ لم يتَّقِ الله حقَّ التَّقوى، فالتَّقوى علَّةُ التَّوكُّل، فكلُّ تقيٍّ متوكِّلٌ.

التَّقوى علَّةُ التَّوكُّلِ، وسبيلُ الخيرِ المُعجَّلِ والمؤجَّلِ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القتالُ والجهادُ:

القتْلُ: إزالةُ الرّوحِ عنِ الجسدِ كالموت، لكنْ إذا اعْتُبِرَ بفعلِ المُتولِّي لذلك، يُقالُ: قَتْلٌ، وإذا اعْتُبِرَ بفَوْتِ الحياة، يُقالُ: مَوْتٌ، قالَ تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ [آل عمران: 144]، والمقاتلةُ: المحاربةُ وتحرِّي القَتلِ، قالَ تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ [البقرة: 193][2].

القتالُ المحاربةُ وتحرِّي القتلِ، بفعلِ المُتولِّي لذلك، فهو أخصُّ منَ الجهاد

وأمّا الجهادُ: فهو اسْتفراغُ الوُسْعِ في مدافعةِ العَدوّ، وهو ما كانَ الغَرَضُ فيه المحاربةَ لقهرِ العدوّ، وإنِ اسْتلزمَ ذلكَ تحصيلَ الغنائمِ والفوائد. والجهادُ ثلاثةُ أَضْرُبٍ: مجاهدةُ العدوِّ الظّاهر،

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/618.
(2) الرّاغب، المفردات: (قتل).

ومجاهدةُ الشَّيطانِ، ومجاهدةُ النَّفْسِ، وتدخُلُ ثلاثتُها في قولِه تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦٓ﴾ [الحجّ: 78][1].

الوَلْيُ والقُرْبُ:

الوَلاءُ والتَّوالي: أنْ يحصُل شيئان فصاعدًا، حصولًا ليس بينهما ما ليس منهما، ويُستعارُ للقُربِ من حيثُ المكانُ وغيرُه كالنِّسبة، والدِّينِ، والنُّصرةِ، والصَّداقةِ، وهو في الأصلِ من وَلِيَ الشَّيءُ الشَّيءَ، وأولَيْتُ الشَّيءَ شيئًا آخر، أي: جعلتُه يَليه[2].

الوَلْيُ التَّوالي المُباشرُ دونَ قطعٍ، والقُربُ تقاربٌ حِسيٌّ، مع احتمالِ وجودِ قاطعٍ

والقُرْبُ عامٌّ في المسافةِ بين شَيئَيْن، أي: في المكانِ وفي غيرِه، يقولُ: قلوبُنا تتقاربُ، وهو قريبٌ بقلبِه فهو أمرٌ معنويٌّ لا حسِّيٌّ، وأكثرُ ما يُستعمَلُ في المكان، ولذلك يقالُ في الأصل: القُربُ في المكان[3]، وقد يكونُ بين متقاربين قاطعٌ حسّيٌّ.

الغِلظةُ والقَسْوةُ:

الغِلظةُ: ضدُّ الرِّقَّة، وتُستعمَلُ في الأجسام، وتُستعارُ للمعاني، يُقالُ: غَلُظَ الشَّيءُ غِلَظًا، صارَ غَليظًا، وكذا استَغْلَظَ، ورَجُلٌ فيه غِلْظَةٌ بكسرِ الغَيْن وضمِّها وفتحِها وغِلاظةٌ بالكسرِ، أي: فَظاظَة[4]، ويقال: "أغلظَ له في القول، وغلّظَ عليه الشّئَ تغليظًا، ومنه الدّيةُ المُغلّظةُ: التّي تجبُ في شبْهِ العمدِ، واليمينُ المغلّظةُ"[5]، ورجلٌ غليظٌ: ذو غِلظةٍ وقساوة وشدّةٍ، وفي التّنزيل: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: 159][6]. والقَسْوةُ: تُستعمَلُ فيما لا يَقبلُ العِلاجَ، ولهذا يوصَفُ بها القلبُ، وإن لم يكنْ صُلبًا، وقَسا قلبُه: غَلُظَ

الغِلظةُ الشّدّةُ، وتُستعمَلُ للأجسام والمعاني، والقسْوةُ جفافُ القلبِ من ماءِ الإيمان

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 385، والرّاغب، المفردات: (جهد).
(2) الرّاغب، الفروق اللغوية، ص: 886 - 887، وابن منظور، لسان العرب: (ولي).
(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 234، 425.
(4) الرّاغب، المفردات، والرّازي، مختار الصّحاح: (غلظ).
(5) الجوهريّ، الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربيّة: (غلظ).
(6) ابن سيده، المحكم: (الغَلظ).

واشْتدَّ، يَقْسو قَساءً وقَسْوةً وقَساوةً[1]، وقد قيل: القسوةُ: "غِلظُ القلب، وهي من قسوة الحجَر. قال اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: 74][2]، كما قيل: "والغُلظةُ بضم الغين لغةٌ في الغِلظةِ، كذا عند بعضهم، والصّحيحُ أنّ الفظاظةَ خُشونةُ القلب، والغِلظةُ قسوةُ القلب"[3].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 429، والرّازي، مختار الصّحاح: (قسا).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسي).
(3) النّسفيّ، طلبة الطّلبة في الاصطلاحات: (فظظ).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14 [إشراف
مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 18 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-15-9
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 18 : المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-15-9
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0758707 بتاريخ 2024/01/31م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»